

أبو طالب وعيُّ عقدي ومحورُ إسلامي

المنطلق العقدي.

أبو طالب (ع) لم يكن حصناً منيعاً للنبي (ص) ودعوته بدافع القرابة باعتباره عماً للنبي (ص)، لأنه يشترك مع أبي لهب في درجة القرابة، وإن تباين موقفهما، بل إنَّ أبا لهب كان مع رؤساء قريش في خط المواجهة ضد النبي (ص)، ولو كان يمكنه تسليمه لقريش لتقتله لما توانى في ذلك، ولو كان دفاع أبي طالب عن النبي (ص) لوصية عبد المطلب فلا يصل الأمر أن يفدي أبو طالب النبي (ص) بأبنائه، فينامون على فراشه حفاظاً عليه كما سوف يتبين فيما بعد، ولا يقبل عاقل أن شخصاً يُقدِّم ابن أخيه على أبنائه ليقتلوا بدلاً عنه من أجل وصية أبيه فقط، بل كيف يُتصور أن يكون أبو طالب كافراً ويدافع بضراوة عن عقيدة غير عقيدته ويستमित في ذلك حتى لو فقد وجهاته ومنصبه وعلاقاته بمجتمعه؟!

إذن لابد أن يكون هناك دافع آخر لأبي طالب لحماية النبي (ص) ودعوته، وهو المنطلق العقدي، الذي عبّرنا عنه بالحاجة في نفس أبي طالب أخفاها، ولو تتبعنا التاريخ لا نجد شخصية تدافع وتضحي في الدفاع عن عقيدة أو مبدأ أو نظرية وهي لا تؤمن بها، فدفاع أبي طالب (ص) عن النبي (ص) ناشئ من قبول لديه لما يطرحه (ص)، ومجموع مواقفه تشكل دليلاً عقلياً على قبوله بدعوة النبي (ص) على الحد الأدنى، وعندما يقبل إنسان عقيدة ويعتقد بحقانيتها فهل يعتنقها أو يتركها؟!

شواهد تأريخية على إيمان أبي طالب.

هناك شواهد تأريخية كثيرة تؤكد أنَّ أبا طالب (ع) كان معتقداً ومعتنقاً دعوة النبي (ص)، وهذه الشواهد تُؤلف دليلاً نقلياً على إيمانه:

الأول: أشعاره الكثيرة التي تربو على ثلاثة آلاف بيت في حقانية النبي (ص) ودعوته على ما ذكره ابن شهر آشوب، منها قوله (ص):

فَأَيَّـدَهُ رَبُّ الْعِبَاد بِنَصْرِهِ وَأَظْهَرَ دِينَنَا حَقَّهُ غَيْرَ بَاطِلٍ

وهذا بيت من قصيدة ذكرها ابن هشام في سيرته[11] ، وذكر هذا البيت ابن كثير مع حدود تسعين بيتاً في تاريخه [21] ، وقال: «هذه قصيدة عظيمة بليغة جداً لا يستطيع قولها إلا من نسبت إليه، وهي أفحل من المعلقات السبع، وأبلغ في تأدية المعنى فيها جميعها»، وأيضاً قال أبو طالب:

يا شاهد اﷲ عليّ فاشهد أني على دين النبي أحمد[31]

وقال (ص)[41]:

ولقد علمتُ بأنّ دين محمد من خير أديان البرية ديناً

وفي أبيات أخرى يقول[51]:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً^١ كموسى خُط في أول الكتب

وقد أخرج ابن الأثير: أنَّ أبا طالب رأى النبي (ص) وعلياً يصليان وعليُّ على يمينه، فقال لجعفر (ع):
مل جناح ابن عمك، وصلَّ عن يساره[6]. وقال في حض أخيه الحمزة لاتباع النبي (ص) ونصرته[7]:

فصبراً أبا يعلى على دين أحمد وكن مظهراً للدين وفقت صابراً

وحط من أتى بالحق من عند ربه بصدق وعزم لا تكن حمز كافراً

فقد سرنى إذ قلت إنك مؤمن فكن لرسول الله في الله ناصراً

وباد قريشاً بالذي قد أتته جهاراً وقل ما كان أحمد ساحراً

وقال البرزنجي: تواترت الأخبار أن أبا طالب كان يحب النبي (ص) ويحوطه وينصره ويُعِينه على تبليغ دينه ويُدِّمُّه فيما يقوله؛ ويأمر أولاده كجعفر وعلي باتباعه ونصرته[8].]

الثاني: أخرج أبو بكر الشيرازي في تفسيره: أن النبي (ص) لما أُ نزل عليه الوحي أتى المسجد الحرام وقام يصلي فيه، فاجتاز به علي (ع) وكان ابن تسع سنين، فناداه: «يا علي إليَّ - أقبِل»، فأقبل إليه مُلبياً، فقال له النبي (ص): «إني رسول الله إليك خاصة وإلى الخلق عامة فقف عن يميني وصل معي»، فقال: «يا رسول الله حتى أمضي وأستأذن أبا طالب والدي»؛ فقال له: «اذهب فإنه سيأذن لك»، فانطلق إليه يستأذنه في اتباعه، فقال: يا ولدي تعلم أن محمداً أمين الله منذ كان، امض إليه واتبعه ترشد وتفلح[9]. فهل يعقل أن يدعو أب ابنه لاعتناق دين فيه الرشد ولا يتبعه وهو يعتقد أن النبي (ص) أمين الله؟!!

الثالث: قال ابن كثير: فكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد به مكراً واغتيالاً له، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه فاضطجعوا على فراش رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وأمر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه[10]، فهل هناك من يضحى بابنه من أجل ابن أخيه إلا إذا كان ذلك عن عقيدة راسخة يؤمن بها؟!.

الرابع: سئل الإمام السجاد (ع) عن أبي طالب أكان مؤمناً؟ فقال (ع): «نعم». فقيل له: إن هاهنا قوماً يزعمون أنه كافر. فقال (ع): «واعجباً كل العجب أيطعنون على أبي طالب وعلى رسول الله (ص)؟! وقد نهاه الله تعالى أن يقرّ مؤمنة مع كافر في غير آية من القرآن، ولا يشك أحد أن فاطمة بنت أسد رضي الله تعالى عنها» من المؤمنات السابقات، فإنها لم تنزل تحت أبي طالب حتى مات أبو طالب (ع)[11] 11. وهذا من الأدلة القوية على إيمان أبي طالب، لأنه لو كان كافراً لما أبقي النبي (ص) فاطمة بنت أسد ولسعى للتفريق بينهما كما فعل مع زينب «بنت النبي أو ربيته بحسب الاختلاف فيها» زوجة أبي العاص بن الربيع عندما أسلمت وأصرّ زوجها على الشرك ففرّق (ص) بينهما ثم أرجعهما بعد إسلام أبي العاص.

حديث الضحاح.

ذكر البخاري عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: قلت للنبي (ص) ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك. قال: هو في ضحاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل[12] 12. وغيرها من الروايات بهذا اللفظ أو المعنى، فبعد غرض النظر عن السند، يمكن مناقشة مضمون الحديث في كونه مخالفاً للآيات والروايات، التي تبين أن الشفاعة لا ينالها كافر، فلا بد أن يكون المشفوع له مسلماً، وحينئذ تكون الشفاعة بشكل عام منفية عن الكافر ولا تفيده حتى في تخفيف العذاب عنه أو مرتبة منه، قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافُورٍ ﴾ [131] ، وقال: ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًَا وَغَرَّتْهُمْ الدُّنْيَا وَذَكَرُوا بِهِمْ أَن تَبْسُلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ﴾ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [141] ، وقال أيضاً: ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ مَّا لِلطَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [151] ، فالآيات واضحة في عدم تخفيف العذاب ولا نيل الشفاعة للكافر. وبالإضافة إلى هذه الآيات هناك روايات تشترط الإسلام في المشفوع له، روى أبو ذر عن النبي (ص) قوله: «أعطيت خمسا» لم يُعْطَهنَّ نبي قبلي: بعثت إلى الأحمر والأسود، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُحِلَّتْ لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، ونُصِرْتُ بالرعب شهراً، يربع مني العدو مسيرة شهر، وقيل لي: سل تُعْطَ، فاختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة منكم إن شاء الله تعالى من لا يشرك بالله شيئاً» [161] ، وغيرها من الروايات التي تربط بين عدم الشرك أو الإسلام والشفاعة، فعلى فرض أنَّ أبا طالب (ع) مات مشركاً تكون رواية الضحاح وما فيها من الشفاعة لتخفيف العذاب عنه تتنافى مع الآيات والأحاديث التي تحصر شفاعة النبي (ص) على المسلمين، فإذا كان الحديث يخالف القرآن والروايات فلا يُؤخذ به، روي عن النبي (ص) قوله: «... وإنه سيفشو عني أحاديث فما آتاكم من حديثي فاقروا كتاب الله واعتبروه فما وافق كتاب الله فأننا قلته وما لم يوافق كتاب الله فلم أقوله» [171].

كتمان إسلام أبي طالب.

بعد ذكر الأدلة التي تثبت إسلام أبي طالب وإيمانه قد يأتي تساءل لماذا يُخفي أبو طالب إسلامه؟

إنَّ الإخفاء يرجع للظروف والضغوط التي عايشها أبي طالب (ع) فلو جاهر بإسلامه إما أن يُقضى عليه سياسياً وجسدياً وإما أن يُضيق عليه فلا يتمكن من حماية النبي (ص)، وعلى كل حال سوف يصبح في عداد المؤمنين بالنبي (ص) ودينه، ولن يكون له موقف حيادي يؤدي من خلاله الدور الذي تميّز به، لذا قال في وصيته: «وإنني أوصيكم بمحمدٍ خيراً فإنه الأمين في فريش، والصدِّيق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به، وقد جاءنا بأمرٍ قَدِيلَةٍ الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن» [181] ، والشنآن بمعنى البغض والعدواة وما يترتب عليها من آثار وخيمة على شخصه وعلى النبي (ص) ودعوته، قال الإمام الصادق (ع): «إنَّ مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف أسروا الإيمان وأطهروا الشرك فآتاهم الله أجرهم

أبو طالب محور الوحدة.

إنَّ الدور الذي قام به أبو طالب في وقوفه سداً منيعاً للدفاع عن النبي (ص) والدعوة لا يمكن لأي مسلم أن ينكره، بل إنَّ أبا طالب له الفضل الأكبر في المحافظة على الدعوة في بدايتها ونشوتها وحمايتها من أعدائها، مما فسح المجال للنبي (ص) لنشر الدعوة في مرحلتها السرية ودخول أكبر عدد ممكن في الإسلام، وهذا موقف يُجله ويحترمه كل مسلم، فلا بد أن يتخذ المسلمون الدور العظيم الذي قام به أبو طالب محوراَ يتلاقى فيه الجميع اعتزازاً وتقديراً لتلك المواقف المُشرِّفة، التي حفظت الدعوة من شائنها ومعاديها، فعندما تتجدد ذكرى أبي طالب (ع) يستذكر كل مسلم لأدوار أبي طالب (ع) وتضحياته التي قدّمها حتى بأبنائه ليحمي النبي (ص)، ويكون دفاعه منطلقاً لانتشار الإسلام من جهة، وحماية للدعوة في استمرارها وبقائها، و[] دُر هذا البيت الهاشمي يبدأ الإسلام بحماية أبي طالب (ع) وتضحياته ويبقى مستمراَ بمواقف وتضحيات ابنه أمير المؤمنين (ع)، فكل مسلم مدين لأبي طالب (ع)، فكيف سوف يؤدي هذا الدين؟! ومن المؤسف أنَّ شخصية أبي طالب (ع) لم تهضم حقها من قبل فئة من المسلمين فحسب، بل حتى من الشيعة أنفسهم حيث لا نجد المؤسسات والمراكز العلمية والجهات المهمة بإحياء الشخصيات الإسلامية قامت بطرح مؤتمر يحمل اسم هذا الرجل العظيم، كما أننا نفتقد دراسات معمقة تتكفل بالجانب العقدي والقيادي والأخلاقي والاجتماعي لشخصيته، لذا، نأمل من المراكز العلمية أن تتبنى عرض الجانب المشرق لهذه الشخصية من خلال تشجيع العلماء والمفكرين والمثقفين لإعداد أبحاث ودراسات تبرز شخصية أبي طالب (ع) بما يتناسب مع دورها الفعّال من جهة، والصفات التي تتسم بها من جهة أخرى، كي تتعرف الأجيال على الشخصيات العظيمة في صدر الإسلام، وتعطيها حقها من التقدير، وتصبح قدوة للشباب ولكل من يشعر بضياغ الهوية والانتماء في عصر أصبح الأعلام يتنافس لاصطياد الشباب، ليكونوا تابعين له عقدياً وفكرياً وأخلاقياً، وهذا سباق خطير يضعنا تحت طائلة المسؤولية الدينية والاجتماعية، ويحفزنا للتحرك السريع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فأيهما سوف يسبق في مارثون الإعلام نحن أم غيرنا؟!!